

زجاجة رماد...

لراغب ابراهيم

فربت من الشمس الماطنة وأوتيت إلى الصباب لأنني رأيت فيه خيوطاً من ذلك النسيج الصرفي المتدلي الذي حيكت به نسي وقلت له : أيتها الصباب إنك تدل سنارك على كل ما يهال له الناس ويكترون ، كأنك لا تؤمن بها أو كأنك ترى فيها سفهاً وعيباً لا يصح معها أن تعرض على الناس ، وقلت له : زدي من حيرتك ووهمك وانظر إيك أيها القمع بالأسرار والأحلام ترضعها لبان الوحي والشعر ، الماء ألمي كأنك تقول لي : أنا ملك أو أنت معي ، أيتها الهازى ، بالسور على عظمته وسلطاته كأنك اليوم الأكبر يهز بالحقيقة الكبرى ، وإن الشعراء والشاعر ووا دفين التائرين أيها الحامل للملائكة من الأدبيات تطلقا على ليالي الإنسانية وكلماً بها الأرواح ، أيتها الصباب الجليل الذي كمارأته قائل لي : إنك لم تستقر بعد على مأرر ورم ، انت على منتقى الطرق وفي نفسك من فسكي ومن نققي ، أيتها الصباب ، أهل إنساني كأنك قلت السور وأرق الليل ، أيها الذي يندو مع الشمس لتنا تتدفق به ندى الرؤى وينقلب بعد المروءة ماءة ولبلاء ، أيها المطرة البيضاء التي يسكنها الغرق في كثروس الفضاء ، أيتها العائمة على تفین الجهلاء الباهي على نفسه ، أيها الرساد المنثور الرائع شذكري لمبه التقاديم ، أيها القاب الذي تبشر به الطبيعة حياة جمالها ، أيها الدين انكوتر الذي لا ين الآ في وليه الإطمأن ، أيها العقد عقد الألم الذي ما بعده ألم يغرض في دعموعه لزفراقة البيض ، أيها القلب الذي يختلخ حماة في صدر الأندر ، أيها الصاب زدي منك أو زد نفسك مي فتحن في غير الخبرة والتجمال والوجه جفنان برأسنان ومحن في فوتفصاء والعدو شفنان متمندق ، وبها أيها الصباب أفق لي صباً فقد سنت الشمس واقصر والمسن واسحر وما هناك من آهابين الرسمون وما كاذب الصور ... تلك هي التكبات التي خاطبت بها الصباب وراء هذا الجلوس أتساءل في غير هذه اليوم ولدت أنظر خوات وكيف يحيي

الضباب بالكلمة التي أربدها ، وهو لو كان يعرنها لما كان ضباباً ... آه ما يزال
يتحمض بها ومن أجل ذلك هو حيث هو ، وحيث يرى من حقه أن يكون ...
لبت صامة انتصر الكلمة النائمة المفقودة ، ثم مرت بذاتية فرقـت بينـا
فتاب الضباب عـنـا ... وفيما أنا مطرق على شاطئ البحر أذكر في تلك الـقـرـوة
الـخـفـيـةـ التي لا يـمـطـأـ طـأـ قـطـعـ الصـلـاتـ بينـ دـوـبـينـ بـتـهـامـانـ وـفـلـينـ بـتـاجـانـ
سمـتـ جـلـيـةـ وـصـرـضـاءـ فـقـمـتـ إـلـيـاهـ ذـاـ آـلـافـ مـنـ الـخـلـقـ يـتـجـادـلـونـ وـيـتـخـاصـمـونـ
وـالـبـحـرـ أـمـهـمـ وـالـجـلـيلـ وـرـاهـمـ وـالـسـاءـ تـنـظـرـ إـلـيـهـمـ فـقـلـتـ :ـ مـاـلـكـ أـلـيـاهـ اـلـنـاسـ ؛ـ
وـمـاـلـكـ أـلـيـهـ تـكـأـكـمـ عـلـيـاهـ وـأـلـقـمـ فـيـهـ الـأـلـسـنـ وـالـبـيـونـ ؟ـ عـلـامـ تـخـلـعـونـ
وـفـيـمـ تـخـدـمـونـ ؟ـ فـقـالـواـ :ـ أـرـأـيـتـ هـذـاـ الـبـحـرـ الـذـيـ تـقـفـ عـلـىـ شـاطـئـهـ ،ـ لـقـدـ
قـدـفـ إـلـيـنـاـ أـمـسـ بـرـاجـةـ مـأـوـاـهـ رـمـادـ وـأـسـرـتـ إـلـيـنـاـ اـحـدـيـ مـوجـاتـ اللهـ رـمـادـ رـجـلـ
عـقـرـيـ عـظـيمـ وـلـدـ فـيـ الـشـنـدـ وـقـضـيـ أـيـامـ عـلـىـ ضـفـافـ «ـ الـكـانـ »ـ يـعـظـ النـاسـ
وـيـهـدـيـهـمـ إـلـىـ الـعـرـنـاطـ الـبـلـيـمـ وـدـلـىـ الـدـنـيـاـ عـكـبـهـ وـإـيـادـهـ فـلـاـ مـاتـ أـحـرـقـ جـرـيـاـ
عـلـىـ الـعـادـةـ الـهـنـدـيـةـ فـتـقـلـتـ عـقـرـتـهـ لـسـانـاـ مـنـ طـبـ مـاـلـتـ أـنـ اـسـتـحـالـ إـلـىـ رـمـادـ
جـمـعـتـهـ الـأـمـةـ فـيـ هـذـهـ الـرـاجـةـ وـأـوـدـعـتـهـ الـبـحـرـ فـازـاتـ الـأـمـرـاجـ تـقـاذـفـهـ حـيـ
وـمـنـهـ عـلـىـ هـذـاـ الشـاطـئـ .ـ ذـلـكـ مـاـ أـسـرـتـ بـهـ إـلـيـنـاـ مـوجـةـ الـبـحـرـ ،ـ وـمـاـهـيـ ذـيـ الـرـاجـةـ
أـجـمـعـنـاـ حـوـلـاـ خـاثـرـيـنـ لـاـ تـدـرـيـ عـلـىـ أيـ مـذـعـ نـفـعـهـ وـمـنـ هـوـ الـذـيـ يـحـنـ لـهـ أـنـ
يـعـلـمـكـمـ وـيـصـعـ يـدـهـ عـلـيـهـ ...ـ وـلـكـنـ مـنـ أـنـهـ اـنـتـ إـلـيـهـ بـعـيـكـ الـخـالـرـةـ ؟ـ
فـقـلـتـ هـمـ :ـ هـيـ عـيـنـاـ ...ـ الـذـيـ تـرـكـتـهـ مـنـدـ سـاعـةـ ،ـ وـقـدـ فـلـتـيـ عـنـهـ بـدـ لـأـتـرـجـمـ
وـمـاـ حـيـرـتـكـمـ إـلـآنـ إـلـأـنـظـرـةـ مـنـ نـظـراتـ تـلـكـ عـيـنـاـ الـتـيـ تـعـمـ الـدـنـيـاـ وـمـلـأـهـاـ .ـ
أـنـيـ أـرـاكـمـ فـيـ ضـبـابـ هـذـهـ الـرـاجـةـ أـنـيـ لـاـ تـعـرـفـونـ أـيـنـ تـضـعـونـهـ .ـ

لـهـاـ زـاجـةـ الـعـقـرـبـةـ ،ـ زـاجـةـ رـمـادـهـ وـقـدـ هـدـتـ ...ـ دـأـبـكـمـ فـاعـلـونـ وـأـيـنـ
خـصـائـصـكـمـ يـنـكـمـونـ فـرـيـ ماـيـكـونـ ؟ـ .ـ فـشـلتـ مـنـ الـجـمـعـ اـمـرـأـةـ تـلـعـبـ الـجـيـدـ
وـقـاتـ هـذـهـ الـرـاجـةـ بـيـ :ـ أـنـاـ الـلـيـلـةـ ،ـ وـهـنـتـ أـخـرـىـ سـاجـةـ الـنـاطـرـ وـصـاحـتـ :ـ
يـلـيـ لـيـ أـنـاـ الـجـانـ ،ـ وـصـاحـتـ اـمـرـأـةـ ثـالـثـةـ أـخـدـتـ بـعـنـقـ السـيـنـ :ـ مـلـيـ لـيـ أـنـاـ
الـمـكـنةـ ،ـ وـوـبـ اـنـيـ اـرـاجـةـ فـيـ وـسـمـ بـعـيـدـ الـخـيـرـ ،ـ صـبـحـ اـنـجـهـ ،ـ مـطـطمـ

الطلق تفتح عباء شريرة وصاح قل، فهـ ورئـيـه وروـحـهـ هـيـ ليـ هوـ لـيـ أناـ الإـهـامـ والـدـسـ .. ثمـ هـضـ منـ سـكـانـهـ شـيـخـ مـلـوتـ الـحـيـاـةـ مـنـ كـتـابـهـ مـبـعـيـنـ صـفـحةـ وـرـاحـ يـخـرـ نـسـةـ حـرـاـ حتـىـ توـسـطـ الـقـوـمـ وـقـلـ بـلـهـجـةـ رـمـادـيـةـ انـ هـذـهـ الرـحـاجـةـ لـيـ أناـ الرـمـادـ .. وـصـاحـ أـحـدـ الـعـبـيـانـ:ـ نـيـ لـيـ أناـ الـأـلـمـ .. وـلـرـفعـ صـوتـ مـنـ إـمـيدـ يـقـولـ:ـ لـاـ تـمـرـاـ هـذـاـ الرـمـادـ فـهـوـ رـمـادـيـ .. وـصـوتـ آـخـرـ صـوتـ آـخـرـ يـقـولـ:ـ أناـ الـبـرـ وـهـذـهـ الرـحـاجـةـ مـنـ جـوـاهـرـيـ .. وـصـوتـ آـخـرـ:ـ أناـ الـلـيـلـ وـفيـ هـذـاـ الرـمـادـ .. عـبـقـنـ مـنـ أـحـلـايـ .. وـسـبـتـ سـوـتـاـنـ مـنـ الـعـلـاـهـ يـقـولـ:ـ أـرـكـواـ الرـحـاجـةـ أـرـكـواـ،ـ فـانـ فـيـهـاـ الـفـ شـسـ تـضـيـ،ـ لـيـ أناـ الـجـرـةـ .. وـهـوـتـ عـلـىـ الـجـمـعـيـاتـ وـقـلـتـاـ:ـ هـذـهـ الرـحـاجـةـ نـاـ فـلـوـ مـيـخـدـقـ الـبـلـاـنـ صـاحـبـهاـ طـوـالـ حـيـاتـهـ لـاـ حـدـقـمـ إـلـيـهـاـ آـلـآنـ .. وـأـطـلـ عـلـىـ النـارـ يـغـرـبـ وـرـاءـ مـوـاـكـبـ الـأـجـيـالـ وـتـوـسـطـ السـاحـةـ وـرـبـعـ صـائـمـاـ:ـ اـبـدـواـ اـبـدـواـ فـمـاـ آـلـيـتـ وـهـذـهـ الرـحـاجـةـ لـيـ فـاـنـ وـحـدـيـ أـسـطـعـ اـذـ أـعـدـرـ بـادـهـاـ لـهـيـاـ فـيـ الـذـكـرـيـ .. وـجـاءـ الـطـفـارـونـ وـالـبـنـاؤـونـ وـالـسـامـوـنـ وـالـفـشـدـوـنـ بـنـدـافـعـوـنـ وـيـدـعـوـنـ فـالـلـيـنـ:ـ لـوـ لـمـ نـكـنـ فـيـ لـسانـ هـذـهـ الرـجـلـ وـعـهـ وـقـلـهـ لـاـ أـسـطـعـ لـانـ يـكـوـنـ عـقـرـيـاـ .. وـاـشـتـدـتـ الـجـلـبـةـ وـعـلـاـ الـصـبـاحـ وـثـبتـ بـيـنـ الـأـرـضـ وـالـسـماءـ حـوـلـ نـيـلـ الـزـجـاجـةـ مـهـرـكـهـ كـادـتـ تـسـطـعـ فـيـ عـيـرـهـ وـالـأـيـديـ تـجـاذـبـهـ .. كـلـ يـدـعـيـ لـهـاـ لـهـ وـرـيـدـ أـنـ يـضـعـ رـمـادـ الـعـتـريـ عـلـىـ مـذـبحـهـ .. فـلـمـ أـعـانـ صـبـراـ وـصـحتـ بـأـوـلـكـ الـأـسـ .. وـبـعـدـ قـلـوـنـ قـلـوـنـاـ باـعـتـاقـ الـزـمـنـ الـآـخـرـ .. كـانـ هـذـهـ الـبـقـرـيـ بـالـأـمـ حـيـاـ فـأـنـكـرـهـ وـحـسـدـهـ وـقـاتـلـهـ وـأـذـمـهـ مـرـ العـذـابـ وـكـدـمـ تـرـجـونـهـ مـنـ أـحـلـ عـقـرـيـهـ وـهـرـأـتـهـ مـحـكـهـ وـعـفـانـهـ وـأـيـاهـ .. كـانـ شـيـلـ فـلـمـ نـقـرـهـ وـعـرـيـانـاـ فـمـ تـكـسـوـهـ وـحـرـمـحـاـ فـمـ تـرـأـسـهـ فـاـمـاـ أـطـلـقـ جـفـنـهـ تـاـفـسـمـ فـيـ حـيـهـ وـرـفـعـتـهـ إـلـىـ قـدـمـهـ .. كـاتـ زـجـاجـهـ رـحـيـةـ فـلـمـ لـشـرـبـهـ فـلـمـ اـنـقـلـتـ رـمـادـأـ نـلـمـ بـهـ عـلـىـ فـيـرـهـ .. لـاـ .. لـيـسـ هـذـهـ الـعـتـريـ لـكـ وـقـدـمـاتـ ،ـ لـاـنـكـ لـمـ تـكـوـنـوـ لـهـ وـهـوـ حـيـ فـلـاـ تـحـسـوـ هـذـهـ اـرـمـادـ عـلـاـ حـقـ لـكـ فـيـهـ .. وـلـاـ يـرـعـنـ أـحـدـ .. مـدـكـ أـنـ هـذـهـ تـعـظـيمـ مـدـنـ لـهـ .. فـاـنـقـرـيـةـ مـسـنـةـ حـرـةـ لـاـ تـنـطـرـيـ تـحـتـ أـيـ جـيـاجـ مـهـماـ يـكـنـ طـائـرـ .. أـنـهـ الـفـهـرـاـ رـالـلـهـ وـالـخـلـدـ ..